وسام جبران

عاجل

تحولات الزمن من الأبدية الدينية إلى اللحظة الرقمية

مقالة

الناصرة

أيار - حزيران 2026

Gibran Publishing

Publishing Literature and Music Online

© 2026. All rights reserved.

عاجل

تحولات الزمن من الأبدية الدينية إلى اللحظة الرقمية

مقدمة

ارتبطت تصورات الإنسان عن ذاته والعالم دائمًا بتصوراته عن الزمن. فالأديان والفلسفات والحضارات لم تختلف في تفسير الوجود فحسب، بل اختلفت أيضًا في تحديد موقع الإنسان بين البداية والنهاية، وبين الماضي والمستقبل. لذلك لم تكن التقاويم والحقب التاريخية مجرد وسائل لتنظيم الوقت، بل تعبيرات عن رؤى أعمق لمعنى الحياة ومسار التاريخ.

غير أن العصر الرقمي يبدو وكأنه أدخل تحولًا نوعيًّا على هذه العلاقة. فبعد أن عاش الإنسان طويلًا داخل آفاق زمنية واسعة، دينية كانت أم تاريخية، أخذ يعيش بصورة متزايدة داخل منطق اللحظة الآنية. لقد أصبحت كلمة "عاجل" أكثر من مجرد وصف إعلامي؛ إذ تحولت إلى مبدأ ينظم الانتباه والإدراك ويعيد ترتيب الأولويات باستمرار. ومن هنا يطرح سؤال نفسه بإلحاح: ماذا يحدث للإنسان حين يصبح الحاضر هو الأفق الوحيد تقريبًا للوعي، وحين تنتصر اللحظة على الامتداد، والعاجل على الآجل؟

هذه المقالة محاولة لقراءة "العاجل" لا بوصفه ظاهرة إعلامية عابرة، بل بوصفه تعبيرًا عن تحول أعمق في تجربة الزمن ذاتها، وما يترتب على ذلك من آثار معرفية ووجودية وثقافية تمس طريقة فهم الإنسان لنفسه ولمكانه في التاريخ.

تكاد كلمة "عاجل" تكون الكلمة الأكثر حضورًا في الحياة المعاصرة. تظهر على شاشات الأخبار، وفي إشعارات الهواتف، وعلى منصات التواصل الاجتماعي، وفي الرسائل الإلكترونية، وحتى في المراسلات اليومية بين الأفراد. وهي في ظاهرها كلمة وظيفية بسيطة، لا تفعل أكثر من تنبيه المتلقي إلى أهمية حدث أو أولوية رسالة أو ضرورة استجابة. غير أن كثافة حضورها، واتساع المجالات التي أصبحت تُستخدم فيها، يدفعان إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدي فعلًا وظيفة لغوية محدودة، أم أنها أصبحت تعبّر عن شيء أعمق يتعلق بالطريقة التي صار الإنسان المعاصر يعيش بها الزمن نفسه.

الكلمات لا تكتسب أهميتها من معانيها المعجمية وحدها، بل من قدرتها على التعبير عن بنى ثقافية كاملة. وكما تحولت مفاهيم مثل "التقدم" و"الثورة" و"الحرية" في مراحل تاريخية معينة إلى مفاتيح لفهم عصر بأكمله، ربما يمكن النظر إلى "العاجل" بوصفه أحد المفاهيم الكاشفة عن طبيعة اللحظة الحضارية الراهنة. ذلك أن ما يتغير اليوم ليس حجم المعلومات التي نتلقاها فحسب، ولا سرعة انتقالها فقط، بل الإطار الزمني الذي تُفهم من خلاله الحياة الإنسانية برمتها.

لفترة طويلة من التاريخ لم يكن الحاضر هو المركز الذي تدور حوله التجربة البشرية. فالمجتمعات التقليدية كانت تنظر إلى نفسها من خلال علاقتها بالماضي أكثر مما تنظر إليها من خلال علاقتها باللحظة الراهنة. ولم يكن الماضي مجرد ما انقضى، بل كان مستودع الشرعية والمعنى. فالأصل يسبق الحاضر ويمنحه قيمته. والآباء المؤسسون، والأنبياء، والنصوص

المقدسة، والأحداث التأسيسية، كلها كانت تشكل نقاطًا مرجعية يُقاس الحاضر عليها ويُفهم من خلالها.

لهذا ارتبطت الأديان، على اختلافها، ببناء تصورات زمنية واسعة تتجاوز التجربة اليومية المباشرة. فالإنسان الديني لا يعيش داخل يومه فقط، بل داخل قصة كونية تبدأ قبل وجوده وتستمر بعد موته. وحتى حين اختلفت الحضارات في فهم طبيعة الزمن، بين تصورات دورية وأخرى خطية، فإنها اشتركت في إخضاع اللحظة الراهنة لأفق أوسع منها. لم يكن الحاضر مكتفيًا بذاته، بل كان يكتسب معناه من علاقته ببداية بعيدة أو نهاية متوقعة أو نظام كوني أشمل.

مع صعود الحداثة لم يختف هذا الأفق الواسع، لكنه تغيّر. فبدل أن يتجه النظر إلى الماضي المقدس، بدأ يتجه إلى المستقبل. وإذا كانت المجتمعات التقليدية قد عاشت تحت سلطة الأصل، فإن المجتمعات الحديثة عاشت تحت سلطة الغاية. أصبح المستقبل هو المصدر الأساسي للمعنى. وظهرت فكرة التقدم باعتبارها الإطار الذي تنتظم داخله السياسة والاقتصاد والعلم والثقافة. لم يعد الإنسان ينظر إلى الوراء لكي يعرف من يكون، بل إلى الأمام لكي يعرف ما يمكن أن يصير إليه.

من الصعب المبالغة في أهمية هذا التحول. فالفكرة الحديثة عن التقدم لم تكن مجرد نظرية تاريخية، بل كانت تصورًا جديدًا للزمن نفسه. لقد منحت المجتمعات الحديثة شعورًا بأنها تتحرك نحو شيء ما، وأن الزمن ليس مجرد تعاقب للأحداث، بل عملية تراكمية يمكن أن تحمل البشرية إلى أوضاع أفضل. ولذلك تأسست المشاريع السياسية الكبرى في القرنين

التاسع عشر والعشرين على وعود مستقبلية. كانت الأمة مشروعًا مستقبليًا، والاشتراكية مشروعًا مستقبليًا، والتنمية مشروعًا مستقبليًا، وحتى العلم نفسه كان يُنظر إليه بوصفه أداة لفتح آفاق جديدة أمام الأجيال القادمة.

غير أن هذا التصور أخذ يتعرض لتحولات متسارعة خلال العقود الأخيرة. فبينما كانت المجتمعات الحديثة تعيش داخل أفق يمتد لعقود وربما لقرون، أخذت المجتمعات الرقمية تعيش داخل أفق أقصر فأقصر. ولم يحدث ذلك نتيجة تحول فكري مجرد، بل نتيجة تغيرات مادية وتقنية عميقة أعادت تشكيل العلاقة بين الإنسان والزمن.

السرعة ليست مجرد خاصية للتكنولوجيا؛ إنها قوة اجتماعية تعيد تنظيم الواقع. حين احتاجت الرسالة في الماضي إلى أسابيع أو أشهر للوصول، كانت الأحداث نفسها تتشكل داخل إيقاع زمني مختلف. وكان هناك دائمًا هامش من المسافة بين وقوع الحدث وتلقيه، يسمح بالتأمل والتفسير وإعادة الترتيب. أما حين يصبح انتقال المعلومات لحظيًا تقريبًا، فإن طبيعة الخبرة الإنسانية تتغير بالضرورة.

لقد أنتجت وسائل الاتصال الحديثة حالة غير مسبوقة من التزامن. فالأحداث لم تعد تصل إلى الجمهور بعد وقوعها بفترة، بل تكاد تصل في لحظة وقوعها. ومع انتشار الهواتف الذكية والشبكات الاجتماعية لم يعد الإنسان ينتظر الأخبار؛ بل أصبحت الأخبار تلاحقه أينما ذهب. وتحول الاتصال من فعل اختياري إلى بيئة دائمة الإحاطة. وهنا بدأت كلمة

"العاجل" تتحول من وصف لبعض الأحداث الاستثنائية إلى صيغة عامة لتنظيم الانتباه.

في الأصل، كان الخبر العاجل حدثًا نادرًا نسبيًا. كانت الكلمة تُستخدم للدلالة على وقوع أمر استثنائي يقطع السياق الاعتيادي للحياة اليومية. أما اليوم فقد أصبح الاستثناء قاعدة. فالاقتصاد الإعلامي والرقمي قائم على إنتاج متواصل لما يشبه حالات الطوارئ الصغيرة. كل إشعار يطلب انتباهًا فوريًا، وكل تحديث يعلن عن مستجد لا يحتمل التأجيل، وكل منصة تسعى إلى إقناع مستخدميها بأن ما يحدث الآن أهم مما كانوا يفكرون فيه قبل لحظات.

هنا يتجاوز الأمر حدود الإعلام ليصبح متعلقًا ببنية الوعي نفسها. فالانتباه مورد محدود، وما ينجح في السيطرة عليه ينجح بدرجة كبيرة في تحديد ما يعتبره الأفراد مهمًا. ولذلك فإن السؤال لم يعد: ما الحدث المهم؟ بل: ما الحدث القادر على انتزاع الانتباه بسرعة أكبر؟ وهذا التحول يبدو بسيطًا للوهلة الأولى، لكنه يحمل نتائج بعيدة المدى. فحين تصبح الآنية معيارًا للأهمية، يتغير ترتيب الأولويات الثقافية والمعرفية والسياسية.

تاريخيًا، كانت أهمية الأحداث تُقاس بقدرتها على التأثير في مسار طويل نسبيًا. أما اليوم فأصبحت الأحداث تُقاس، في كثير من الأحيان، بقدرتها على الهيمنة المؤقتة على المجال العام. ومن هنا تنشأ ظاهرة لافتة: فالأحداث لا تختفي لأنها فقدت أهميتها، بل لأنها فقدت حداثتها. إن ما يطرد الخبر من دائرة الاهتمام ليس بالضرورة ظهور معلومات جديدة عنه،

بل ظهور شيء أحدث منه. وكأن الزمن الرقمي لا يعمل وفق منطق التراكم، بل وفق منطق الإزاحة المستمرة.

في هذا السياق يصبح "العاجل" أكثر من مجرد كلمة؛ يصبح شكلًا من أشكال الزمن. فالإنسان لا يعيش فقط وسط أخبار عاجلة، بل يعيش داخل بنية زمنية تجعل كل شيء مؤقتًا وقابلًا للاستبدال بسرعة. وما إن يبدأ حدث ما في الاستقرار داخل الوعي حتى يدفعه حدث آخر إلى الهامش. وهكذا تتوالى اللحظات دون أن تُمنح فرصة كافية للتحول إلى خبرة مستقرة أو ذاكرة راسخة.

هنا تظهر مفارقة أساسية في الثقافة الرقمية. فمن ناحية، لم يسبق للبشرية أن امتلكت هذا القدر من المعلومات عن العالم. ومن ناحية أخرى، لم يكن بناء صورة متماسكة عن العالم بهذه الصعوبة من قبل. والسبب أن الفهم يحتاج إلى زمن مختلف عن الزمن الذي تعمل به الأخبار العاجلة. فالمعرفة ليست مجرد استقبال للمعلومات، بل عملية ربط وتأويل ومقارنة واستخلاص للأنماط والعلاقات. وهذه العمليات تتطلب بطئًا نسبيًا، أو على الأقل تتطلب مقاومة منطق الاستجابة الفورية.

لعل هذا ما يفسر أن كثيرًا من الأسئلة الكبرى تبدو اليوم أقل حضورًا مما كانت عليه في أزمنة سابقة. فالسؤال عن معنى التاريخ، أو مصير الإنسان، أو مستقبل الحضارة، أو طبيعة الحياة الجيدة، لا يستطيع أن ينافس في سوق الانتباه الأحداث اليومية المتلاحقة. ليس لأنه أقل أهمية، بل لأنه يحتاج إلى زمن أطول لكي يُفكر فيه. أما "العاجل" فينتصر لأنه ينسجم مع الإيقاع السائد للمنصات والتطبيقات والشبكات.

غير أن المسألة لا تتعلق بالثقافة وحدها، بل بالاقتصاد أيضًا. فالاقتصاد الرقمي المعاصر يعتمد بصورة متزايدة على تحويل الانتباه إلى مورد قابل للاستثمار. والمنصات الكبرى لا تبيع المعلومات بقدر ما تبيع القدرة على جذب المستخدمين وإبقائهم أطول مدة ممكنة داخل فضائها. ومن هذه الزاوية يصبح إنتاج الشعور بالإلحاح ضرورة بنيوية. فكل دقيقة يقضيها المستخدم في مكان آخر تمثل خسارة محتملة. ولذلك لا تعمل المنصات على تنظيم المعرفة بقدر ما تعمل على تنظيم الانتباه.

من هنا يمكن فهم السبب الذي يجعل "العاجل" يتجاوز المجال الإعلامي إلى مجالات أخرى عديدة. فهو حاضر في التسويق، وفي الإدارة، وفي التواصل المهني، وفي الحياة الشخصية. لقد أصبح نمطًا عامًا من أنماط التعامل مع الزمن. وما يميز هذا النمط أنه يضغط المسافة بين الرغبة والاستجابة، وبين السؤال والجواب، وبين الحدث والتفاعل معه. فكل تأجيل يبدو خللًا، وكل انتظار يبدو عبئًا، وكل بطء يبدو نقصًا ينبغي التخلص منه.

لكن الإنسان لم يتطور بيولوجيًا أو نفسيًا لكي يعيش داخل هذا الإيقاع بصورة دائمة. فالذاكرة تحتاج إلى وقت، والعلاقات تحتاج إلى وقت، والتعلم يحتاج إلى وقت، وحتى تكوين الذات يحتاج إلى وقت. إن أعمق التحولات في حياة الإنسان لا تحدث عادة في لحظات الصخب القصيرة، بل في عمليات تراكمية طويلة قد لا يُلاحظ أثرها إلا بعد سنوات. ولهذا فإن هيمنة العاجل لا تعني فقط تغيرًا في طرق الاتصال، بل تعني أيضًا إعادة تشكيل غير مباشرة لفهم الإنسان لنفسه.

الذات الإنسانية لا تتكون من الحاضر وحده. إنها تتشكل من شبكة معقدة تربط بين ما تتذكره وما تتوقعه. والهوية ليست معطى لحظيًا، بل بناء زمني. وكلما ضاق الأفق الزمني الذي يعيش داخله الفرد، ازداد خطر اختزال وجوده في سلسلة من الاستجابات المتفرقة. وهنا لا يعود السؤال متعلقًا بالتكنولوجيا في ذاتها، بل بنوعية الإنسان الذي تنتجه.

ربما لهذا السبب تبدو العودة إلى مسألة الزمن أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى. فالقضية ليست أن الأخبار كثيرة، ولا أن الشاشات منتشرة، ولا أن المعلومات تتدفق بسرعة. القضية الأعمق هي أن الثقافة المعاصرة أخذت تمنح الحاضر سلطة لم يمتلكها في أي مرحلة سابقة من التاريخ. لقد تراجع الماضي إلى أرشيف يمكن استدعاؤه عند الحاجة، وتراجع المستقبل إلى توقعات قصيرة المدى، بينما تمددت اللحظة الراهنة حتى كادت تستحوذ على المجال الزمني بأكمله.

لكن المجتمعات لا تستطيع أن تعيش داخل الحاضر وحده. فالحاضر يجيب عن سؤال: ماذا يحدث الآن؟ لكنه لا يجيب عن سؤال: لماذا يحدث؟ ولا عن سؤال: إلى أين يقود؟ وهذان السؤالان هما اللذان يصنعان المعنى في النهاية. لذلك فإن التحدي الحقيقي لا يتمثل في مقاومة التكنولوجيا أو الانسحاب من العالم الرقمي، بل في استعادة القدرة على العيش داخل أكثر من زمن واحد في آن واحد؛ أن نستجيب لما يفرضه الواقع من إلحاحات، دون أن نفقد علاقتنا بالمدى الأوسع الذي يمنح تلك الإلحاحات معناها.

لعل أخطر ما في هيمنة "العاجل" أنها لا تجعلنا نعرف أقل، بل تجعلنا نرى أقل. فهي تملأ مجال الرؤية بالأحداث المتلاحقة إلى درجة تحجب معها البنى العميقة التي تنتج تلك الأحداث. وما يحتاجه الإنسان، كما احتاجه دائمًا، ليس مجرد معرفة ما يحدث الآن، بل القدرة على وضع هذا "الآن" داخل قصة أكبر منه. فالحضارات لا تُبنى على ردود الأفعال وحدها، بل على قدرتها على ربط اللحظة العابرة بزمن أطول منها.

عند هذه النقطة يعود "العاجل" إلى حجمه الحقيقي. فهو ضرورة لا غنى عنها في عالم سريع ومعقد، لكنه لا يستطيع أن يكون المبدأ الوحيد لتنظيم الحياة. لأن ما هو عاجل ليس دائمًا ما هو مهم، وما هو مهم لا يظهر دائمًا في صورة عاجلة. وبين هذين المستويين من الزمن تتحدد قدرة الإنسان المعاصر على ألا يفقد المعنى وسط فيض الوقائع، وألا يضيع الأفق وسط سطوة اللحظة.